استراحة المسافر (٥)

* ضاف رجلٌ قوماً فكرهوا قدومه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟ فقالت: نفتعل خصومة بيننا حتى نتحاكم إليه. ففعلا ذلك، فقالت للضيف: بالذي يبارك لك في غُدُوِّك غداً أيُّنا أظلم؟ فقال الضيف: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهراً ما أعلم.
* تزوج أعمى امرأة. فأخذت تمدح نفسها وجمالها عنده وتقول: لو رأيت حسني وبياضي لعجبت. فقال: لو كنتِ كما تقولين ماتركك لي المبصرون.
* كان رجل يسكن في دارٍ بأجرة، وكان خشب السقف يتفرقع كثيراً. فلما جاء صاحب الدار يطالبه بالأجرة قال له: أصلح هذا السقف، فإنه يتفرقع قال: لا بأس عليك، فإنه يسبح الله، قال: أخشى أن تدركه الرأفة فيسجد.
* وقف قوم على رجل طباخ وهو يطبخ قدراً، فأخذ أحدهم قطعة لحم فأكلها، وقال: يافلان تحتاج القدر إلى الخل، وأخذ آخر قطعة لحم فأكلها وقال: يا فلان تحتاج القدر إلى أبزار، وأخذ آخر قطعة لحم وقال: تحتاج القدر إلى ملح، فأخذ الطباخ قطعة لحم وقال: تحتاج القدر إلى لحم فتضاحكوا منه وانصرفوا.
* قال عبّاس الخيّاط عن رغيف البخيل:

لأبي عيسى رَغيفٌ فيه خمسون عَلاَمهْ
فعلى جانبه الوا حدِ، لُقِّيتَ الكرامَهْ

ثمّ لا ذاقَكَ لي ضيـ ... فٌ، إلى يوم القيامهْ
وعلى الآخر سَطْرٌ ... نسـألُ الله السـلامَـهْ

العشاق قبل الزواج وبعده :

يقول الشاعر أسعد رستم يصف حال العُشَّاق قبل وبعد الزواج وهي قصيدة رائعة حقاً وصادقةٌ في فكرتها وموضوعها وما أجمل ما اختتمها به الشاعر.

قَبْل الزواج يكون المرءُ محترقاً ... على التي بهواها قلبه عَلِقا
والصبُ في قلبه نارٌ مُؤَجَّجةٌ ... وإن تكنْ عند من يهواه قد دنقا
لو حال دون المنى طودٌ لحاول أنْ ... يكون بالفعل ذاك الطود مخترقا
وكلما غَلَّقوا باباً يمرُّ بهِ ... سعى لكيْ يفتح الباب الذي غُلِقا
تراه يُنفق أموالاً قضى زمناً ... من الجبين عليها يسكب العرقا
ويهجر الأهل والأصحاب أجمعهم ... لكي يكون بها في الحبِّ ملتصقا
يقضي النهار ولا شغلٌ لديه سوى ... ذكرى الحبيب ويقضي ليله أرقا
وقد يموت وكَمْ صَبّ صبابته ... جَنَتْ عليه فما أبقت له رمقا
لو أنها سألته حاجةً لجرى ... كالسيل مندفقاً والسهم منطلقا
وكم تبسَّم مسروراً بِطَلْعتها ... وكم تنهَّد مشتاقاً وكم شهقا
وقدْ يغار عليها إنْ هي الْتفتت ... إلى سواه فيمسي باله قلقا
يشري لها كل ما تهواه من تحفٍ ... يشري الأساور والأطواق والحلقا
حتى إذا وهبته قلبها فغدا ... زوجاً لها وعلى صدق الولا اتفقا
قلَّت محبته للحال وانقلبت ... بغضاً ولم يبق من ذكرٍ لما سبقا
كأنه لم ينل من دهره أرباً ... لأجله قلبه الولهان قد خفقا

كأنّما لم يطب نفساً بزوجتهِ ... كلاّولم يقترن يوماً ولا عشقا
فصار يشتمها ظلماً ويلطمها ... وربَّما وَقْتَ غيظٍ رأْسَهَا سَحَقَا
أقـلُّ حـادثـةٍ منهـا تُهيِّجـهُ ... حتى إذا عارضت قولاً له حنقا
يريد منها طعاماً إن تأخّر عن ... ميعاده لحظةً في وجهها بصقا
كأنما هي من بعض العبيد له ... والعبدُ في هذه الأيام قد عُتِقا
يغيب عن بيته ليلاً فيتركها ... وحيدةً فتقاسي وحدةً وشقا
حتى إذا سألته أين كان أبى ... ردَّ الجواب عليها والعصا امتشقَا
يقول قومي أيا بنت الكلاب إذاً ... وقطِّبي بنطلوناً لي فقَدْ مُزِقا
اجْلي اطبخي كنِّسي هيَّا احملي ولداً ... فـإنـه يقلـق الجيـران إن زعقـا
وهكذا تستمر الحال بينهما ... وربَّما بعد هذا كلِّه افترقا
بئس الزواج زواجٌ لا وفاق به ... ولا بقـاء بـلا حـبٍّ يُعـدُّ بَقـا
المرء يطلب رزقاً ليس يملكه ... حتى إذا ناله لم يرض ما رُزِقا

الراكب شيطان

هذا العنوان هو جزء من حديث من أحاديث المصطفى ﷺ والحديث هو قوله ﷺ: «**الرَّاكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**» [الصحيحة: ٦٢]. وقد يظهر للإنسان أن في هذا الحديث حرجاً أو إشكالاً؛ حيث إن المسافرين فرادى كثيرون في هذا الزمن فيقع المسلم في حرج ظانّاً منه أن سفره وحده أمر محرم، والحقيقة أن هذا الحديث من الأحاديث التي تبين لناعظمة هذا الدين وشموليته وحرصه الكبير على مصلحة الفرد وسلامته وحمايته، ولذلك نجد أحاديث أخرى تنهى أن يبيت الرجل وحده، وهي من هذا المنطلق أيضاً، وقد كان المسافرون في العصور القديمة يعانون معاناة شديدة، ويتعرضون لمخاوف عديدة، فالوسائل بدائية، وقطّاع الطرق كثير، والوحوش الكاسرة كثيرة، والأوبئة أكثر، ثم إن الشيطان يقوىٰ تأثيره على الواحد وكلما كان الركب أقوى وأكثر كان كيد الشيطان أضعف وأحقر.

وقد ورد في حديث آخر أن الرسول ﷺ نهى أن يسافر الرجل وحده، وفي حديث آخر خصص التحذير من الوحدة بالسفر ليلاً، فقال: «**لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكبٌ بليلٍ وحده**» [أخرجه أحمد والبخاري]. فهذا الحديث ـ والذي قبله وما جرى مجراها ـ تُحمل على كراهة السفر منفرداً واستحباب الرفقة، لما لها من آثار مجيدة وعواقب حميدة، فهي تضعف كيد الشيطان ووسوسته لأن معنى: المسافر شيطان، أي أن الشيطان يرافقه ويغويه ويوسوس له وكذلك المسافران فربما أُصيب

أحدهما فيبقى الآخر منفرداً ومن فوائد الرفقة أن المسافر لا يشعر بالملل والتعب وطول الطريق، فيجد من يؤنسه ويسليه ويدخل السرور عليه، فالنهي عن السفر منفرداً ليس للتحريم وإنما للكراهة. ولو دعت الحاجة إلى سفر الرجل وحده فليس في ذلك بأس، وكذلك إذا انتفت أسباب الخطر انتفى المانع. وقد أرسل الرسول ﷺ مسافراً منفرداً وذلك كثير. منهم حبيب بن زيد حينما أرسله إلى مسيلمة الكذاب، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، وأرسل مُسافِرَيْن اثنين كإرساله لزيد ابن حارثة ورجل من الأنصار من المدينة إلى مكة ليأتيا بابنته زينب ـ رضي الله عنها ـ وغير ذلك كثير.

والأحاديث التي تحمل على الكراهة مرتبطة بسبب فإذا زال السبب زال المانع، ومثله نهيه ﷺ عن أن يأتي الرجل أهله بليل إذا كان قادماً من سفر، فهذا الحديث تنتفي كراهته إذا زال السبب بحيث وُجِد الهاتف ووسائل الاتصال التي يخبر المسافر عن طريقها أهله فيستعدُّون لمقدمه ويتهيؤون لاستقباله.

من أخبار المسافرين (١٥)

الأعشى يلغي الممشى

قال ابن هشام رحمه الله: حدثني خلَّاد بن قرة بن خالد السدوسي وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم: أن أعشى بني قيس بن ثعلبة ـ الشاعر الجاهلي الشهير ـ خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام فقال يمتدح رسول الله ﷺ:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبتَّ كما بات السليم مسهدا

إلى أن قال:

وآليت لا آوي لها من كلالة ... ولا من حَفى حتى تلاقي محمدا
نبياً يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تَغبّ ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدَّك لم تسمع وُصَاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... فتُرصِد للأمر الذي كان أرصدا
فإياك والمَيْتَات لا تقربنها ... ولا تأخُذَنْ سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصُب المنصوب لا تَنْسُكنَّه ... ولا تعبد الأوثان واللهَ فاعبدا
ولا تقربنْ من حرَّةٍ كان سرُّها ... عليك حراماً فانكحنْ أو تأبَّدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنَّه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشيات والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولاتسخرنْ من بائس ذي ضراوة ... ولا تحسبنَّ المال للمرء مُخلِدا

قال: فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش،

فسأله عن أمره فأخبره بأنه جاء يريد رسول الله ﷺ، فقال له: ياأبا بصير إنه يُحرِّم الزنا، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرَب، فقال له: ياأبا بصير فإنه يحرم الخمر، فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني أنصرف فأتروَّى منها عامي هذا ثم آتيه فأُسْلِم، فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ.

مسافرون في طلب العلم

أقول لها والعِيسُ تُحدج للسُّرى أَعدِّي لفقدي مااستطعتِ من الصَّبْرِ
سأنفق ريعان الشبيبة جاهداً على طلب العلياء أو طلب الأجرِ
أليس من الخسران أن ليالياً تمرُّ بلا نفعٍ وتُحسبُ من عمري؟

إن ديننا الإسلامي دين العلم والتعليم، والهداية والإرشاد، والنور والبرهان، ولذلك نرى أن انطلاقة الوحي، وإطلالة النور، ونزول القرآن إعلانٌ لأهمية العلم، وقيمة القلم، وشأن القراءة، فتهبط الآيات الأولى على قلب محمد ﷺ مُسْتَهلَّةً بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فلا أمية بعد اليوم، ولا استسلام للجهل، ولا ركون للظلام والضلال، «اقرأ» فإن هذا الدين عنوانه القراءة، ودستوره القرآن، وروحه العلم، وآلته القلم، وآفته الجهل، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

ويقسم تعالى بالقلم إعلاء لشأنه فالقلم هو طريق العلم والتعلم ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾. هذا الدين يرفع شأن العلم وأهله ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾. ويمقت الجهل وأهله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويَقْصر معرفة الله حق المعرفة وخشية الله عين الخشية على العلماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾.

هذا الدين يدعو إلى العلم قبل العمل ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وهذا إمام العلماء وسيد البلغاء والفصحاء وخاتم الأنبياء يدعو أمته إلى نور العلم ودوحة القراءة، وميراث النبوة، وينبوع الحكمة، ونفض غبار الجهل ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢]

وهاهو يملأ الأسماع والقلوب بأحاديثه العطرة التي يبين فيها أهمية العلم، وبركة العلم، ونور العلم، ولا يسمح المجال هنا لبسط القول حول العلم وأهميته وأجر العالم والمتعلم، ولكن نشنف الأسماع بحديثين بين يدي كلامنا عن المسافرين في طلب العلم، قال ﷺ: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**» [صحيح الجامع]

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاهُ الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها**» [رواه البخاري ومسلم]

ولقد عرف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وعرف التابعون لهم بإحسان عرفوا منزلة العلم وأهميته، وأن البشرية إذا جهلت وتركت العلم زاغت وضلت وتنكبت الصراط المستقيم فقاموا بواجب العلم والتعليم وحملوا إلى الأمة هَدْي الرسول ﷺ كاملاً مكملاً مجملاً ومفصلاً، وقد ضرب

الصحابة والتابعون لهم بإحسان على مر العصور ضربوا أروع الأمثلة في الحرص على طلب العلم والتفنن في صيانته وتنقيته وتعليمه للأجيال المؤمنة، وسأنقل إليك في هذه الورقات المقبلة طرفاً من ذلك الحرص ومقاطع من تلك التضحيات، وعجائب من هاتيك المغامرات، وروائع من الرحلات المضنيات التي قاموا بها طلباً للعلم، ورغبة في الأجر، ونشراً للحق، وصيانة للمنهج وحراسة للشريعة، وتعليماً للأمة، وكشفاً للغمة:

١ ـ صفوان بن عسال يسافر إلى نبي الله ﷺ:

هذا صفوان بن عسّال ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ يسافر ولكن إلى من؟ إلى إمام العلماء وسيد الأنبياء، إلى محمد ﷺ.

جاء هذا الرجل من مراد فدخل إلى الرسول ﷺ وهو متكئ على بردٍ له أحمر فقال: يارسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: «**مرحباً بطالب العلم إن طالب العلم لتحفّ به الملائكة وتظلّه بأجنحتها فيركب بعضها بعضاً حتى تعلو إلى السماء الدنيا من حبهم لما يطلب، فما جئت تطلب؟**» قال صفوان: يارسول الله لاأزال أسافر بين مكة والمدينة، فأفتني عن المسح على الخفين. قال: «**يوم وليلة للمقيم وثلاث للمسافر من غائط أو بول ثم أحدث وضوءاً**».

٢ ـ مسافرٌ إلى أبي الدرداء:

جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وهو بدمشق فسأله عن حديث، فقال له أبوالدرداء: ما جاءت بك حاجة ولا جئت في طلب التجارة، ولا جئت إلاّ في طلب الحديث؟ فقال الرجل: بلى. فقال له أبوالدرداء: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبدٍ يخرج**

يطلب علماً إلاَّ وضعت له الملائكة أجنحتها، وسلك به ـ أي بالعلم ـ طريقاً إلى الجنة، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات، ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنهم ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر».

يا لها من بشرى رائعة ومن حديث عظيم فأين أنتم يا أهل الهمم العالية؟

٣ ـ جابر بن عبدالله يسافر شهراً كاملاً:

أخي المسافر تعال بنا الآن نصغِ إلى هذا الصحابي الجليل جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ نصغِ إليه ونستمع لقصة سفره شهراً كاملاً من أجل حديث واحد (رواحها شهر وغدوها شهر) يقول أبوعبدالله:

بلغني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ حديثٌ سَمِعَه من رسول الله ﷺ، فاشتريتُ بعيراً ثم شَدَدْتُ رحلي، فسرت إليه شهراً حتى قدمتُ الشام، فإذا عبدالله بن أُنَيْس، فقلت للبواب: قل له جابرٌ على الباب، فقال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم. فخرج عبدالله بن أُنَيْس فاعتنقني، فقلت: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ، فخشيتُ أن أموتَ أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يحشُرُ الله الناسَ يوم القيامة عراةً غُرْلاً بُهْماً»** قلنا: وما بُهْماً؟ قال: **«ليس معهم شيء. فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملكُ ـ أنا الدَّيَّانُ ـ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحدٌ من**

أهل النار يَطْلُبُهُ بمظلمة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبُه بمظلمة» ـ يعني لا يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، إلاَّ بعد تصفية الحساب ـ. قلت: وكيف؟ وإنما نأتي الله عُراةً بُهماً؟ قال: «**بالحسناتِ والسيئاتِ**» يعني أن القِصاصَ يكون بالحسنات والسيئات.

أرأيت هذا الحرص العجيب والحب العظيم للعلم والمعرفة فهو يسافر شهراً ذاهباً وشهراً آيباً من أجل حديثٍ واحد رضي الله عنه وأرضاه.

خير خلف لخير سلف:

ثم إذا ما غادرنا ساحة أصحاب محمد ﷺ مكتفين بما ذُكر من النماذج الرائعة ـ رغم وجود كثير من أمثالها وأشباهها ـ إذا ما غادرنا تلك القمم الشاهقة إلى خلفهم الصالح فإننا سنقف عند رجالٍ تتضاءل الجبال الراسيات أمام عظمتهم، وتتحطم الصخور الراسيات أمام عزائمهم، وتقصر الجوزاء عند هممهم، صَبْرٌ وتضحية، تعبٌ ونصب، سهرٌ ووصب، حلٌّ وارتحال، سَفرٌ وانتقال، همّةٌ وطموح، غُرْبةٌ ونزوح، عَزْمٌ وتصميم، كتابةٌ وترقيم، تعلّمٌ وتعليم، جوعٌ وألم، دواةٌ وقلم، إخلاصٌ ونقاء، تألقٌ وصفاء، خشوع وبكاء.

إن في خبرهم سَلْوة، وفي قصصهم عبرة ﴿**فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾**﴾ ﴿**لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ**﴾:

١ ـ أبو العالية: رفيع بن مهران الرِّياحي البصري المتوفى سنة ٩٣ تابعيٌ جليل يقول: كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم.

٢ ـ **سعيد بن المسيب** : سيد التابعين. عالم المدينة المنورة المتوفى سنة ٩٤هـ رحمه الله رحمة واسعة، يقول سعيد بن المسيب: كنتُ أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

٣ ـ **الشعبي**: عامر بن شَرَاحيل الكوفي المتوفى سنة ١٠٣، تابعي جليل رحمه الله خرج من الكوفة إلى مكة المكرمة في طلب ثلاثة أحاديث ذُكِرت له. فقال لعلّي ألقى رجلاً لقي النبي ﷺ.

٤ ـ **مكحول الشامي**: أبوعبدالله بن أبي مسلم الهذلي، ولد في بلدة كابل من أفغانستان وتوفي بدمشق سنة ١١٢هـ. عالم أهل الشام وهو مولى لامرأة من هذيل. يقول: طفتُ الأرض كلها في طلب العلم. ويقول: لم أدَعْ بمصر علماً إلاَّ حويته، ثم أتيت العراق فلم أدَعْ فيها علماً إلاَّ حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت المدينة فكذلك، ثم أتيت الشام فَغَرْبَلْتُها.

٥ ـ **إمام أهل السنة**: الإمام أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الذهلي، إمام المسلمين، حبُّه والدفاع عنه من شعار أهل الدين. ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ. ونشأ على الصبر والقناعة. وحفظ القرآن في صباه. واتجه إلى الحديث اتجاهاً كليًّا. ورحل إلى بلاد كثيرة، والتقى في رحلته إلى الحجاز مع الإمام الشافعي، وأخذ عنه الفقه وأصوله، ولقيه بعد ذلك ببغداد، وعلا شأنه في الحديث وعلم الرواية، حتى بلغ مبلغ الإمامة ورتبة الاجتهاد، فكان يحفظ ألف ألف حديث، وجلس للتدريس والفتيا، وكان إقبال الناس على مجالسه عظيماً، وتخرج عليه كبار الأئمة مثل الإمام البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود، وكان آية من آيات الله في الزهد والقناعة والتوكل، والورع، والتواضع، والعزوف عن أموال

السلطان، ومكارم الأخلاق، امتحن في الله، وفي الدفاع عن السنة والعقيدة الصحيحة في فتنة الاعتزال أيام المعتصم، وعذب عذاباً لم يعذبه إلاّ أفراد قلائل، فصبر صبر الأبطال، وثبت ثبات الجبال، ثم امتحن بالصلات والعطايا، والإجلال والتكريم أيام المتوكل، فاستقام استقامة الربّانيين، والمتوكلين الزاهدين، وانتصر للسنة، وذاد عن الإسلام، حتى قال علي بن المديني أحد أئمة الحديث في عصره: «إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردّة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة» وقال قتيبة: «إذا رأيت الرجل يحبّ أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة».

كانت وفاته سنة ٢٤١، وصلّى عليه جمع كثير قال عبدالوهاب الوثّاق: ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله، ومن مؤلفاته الشهيرة مسنده.

يقول عن أسفاره: رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعاً، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عدت إلى بغداد. قال ابن الجوزي: طاف الإمام أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المسند. وقال العُلَيمي: طَلَبَ الحديث وهو ابن ست عشرة سنة وخرج إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة وهو أول سفر له، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين، وخرج إلى سفيان بن عيينة إلى مكة سنة سبع وثمانين وهي أول سنة حج فيها، وخرج إلى عبدالرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ورافق يحيى بن معين في رحلته إليه.

٦ ـ **الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي:** المولود عام ١٩٥هـ، يقول:

وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا - وذلك في المغرب الأقصى - إلى مصر ماشياً، ومن مصر إلى الرملة ماشياً، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس. ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته، ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرَّقّة، ومن الرّقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كلّ ذلك ماشياً، هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة، أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ٢١٣ في شهر رمضان، ورجعت سنة ٢٢١.

وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ومئتين ورجعت سنة خمس وأربعين. أقمت ثلاث سنين، وكان سِنّي في هذه الرحلة ٤٧ سنة.

٧ - الإمام الحافظ أبوسعد السمعاني التميمي المروزيُّ الشافعي: ولد بمَرْو عام ٥٠٦هـ وتوفي فيها عام ٥٦٢هـ. قد بلغ من التطواف والارتحال ما لا يخطر على بال، فكأن أخبار ارتحاله من الأساطير، ولكنها أصدق من الصبح المنير، نهض برحلات قاربت ٢٠ سنة، لا يعرف الملل ولا الكلل. وقد اعتنى به والده عناية كبيرة، فبَكَّرَ بإسماعه من أجلّة مشايخ مرو، ثم رحل به إلى نيسابور بلد الحديث والمحدثين، في سنة ٥٠٩هـ، وكانت سِنُّهُ آنذاك بلغت الثالثة والنصف من العمر، فكان والده في مرو

وفي نيسابور يحضره مجالس المحدثين، ويكتب له ما أملوه، أو ما قرئ عليهم في تلك المجالس وهو حاضر، ويثبت ذلك ويصححه، ليكون أصلاً يرجع إليه ولده، ويروي منه إذا كبر، وكان يأخذ له الإجازات منهم، وبهذا حصل لولده علو الإسناد من مشايخ عصره، وكانت هذه الإجازات والسماعات والمقروءات أساس مادته العلمية الأولى.

وقد رحل أبوسعد إلى أكثر من مائة مدينة، الرحلة الأولى وكانت مدتها نحو عشر سنوات، وكانت من خراسان شرقاً إلى الشام غرباً، ومن العراق شمالاً إلى الحجاز جنوباً، وامتدت من سنة ٥٢٩هـ، إلى سنة ٥٣٨هـ.

والرحلة الثانية وكانت مدتها ست سنوات، من سنة ٥٤٠هـ إلى سنة ٥٤٦هـ، وقد اقتصر فيها على زيارته لأغلب مدن خراسان كنيسابور، وسرخس، ومرو الرُّوذ، وهراة، وبلخ، ونسا.

والرحلة الثالثة: وكانت مدتها أربع سنوات، كانت في سنة ٥٤٩هـ إلى سنة ٥٥٢هـ، إلى بلاد ما وراء النهر، فزار فيها سمرقند، وبخارى، ونَسَف، وغيرها، وفي طريق عودته إلى مرو زار مدينة خوارزم، ثم استقر في وطنه إلى آخر حياته في سنة ٥٦٢ رحمه الله تعالى، فكانت مدة رحلاته الثلاث نحو عشرين سنة. وقد أحصى الشيخ عبدالفتاح أبوغدة عدد المدن التي سافر إليها السمعاني فبلغت حوالي مائة وسبعين مدينة وبلدة.

٨ ـ **أبوالعلاء الهمذاني**: الحسن بن أحمد بن سهل المقرىء المحدِّث الحافظ، الفقيه الحنبلي، الأديب اللغوي، المؤرِّخ النسَّابة، الرحَّال، الزاهد، شيخ هَمَذان، المولود سنة ٤٨٨، المتوفى سنة ٥٦٩ رحمه الله تعالى.

الحافظ العلامة المقرىء، شيخ الإسلام، وُلِدَ بهمذان، وتلقَّى عن كبار الشيوخ فيها، ثم ارتحل إلى بغداد أربعَ مرات، فسَمِعَ من خلقٍ كثير من علمائها، ثم عاد إلى همذان، وعَمِلَ داراً للكتب وخِزانة، ووقف جميع كتبه فيها، وكان قد حصَّل الأصول الكثيرة، والكتب النادرة الكبار الحسان، بالخطوط المعتبرة، وأَرْبى على أهل زمانه في كثرة السماعات، مع تحصيل أصول ما سَمِع، وجودة النُّسخ، وإتقان ما كتبه بخطه، فإنه ما كان يكتُبُ شيئاً إلاَّ مُنَقَّطاً مُعْرَباً.

وكان عفيفاً من حب المال، مُهيناً له، من أبناء التجار، فباع جميعَ ما وَرِثَهُ وأنفقه في طلب العلم، وسافَرَ الكثير ماشياً، حتى سافر إلى بغداد وإلى أصبهان مراتٍ ماشياً، يَحمِلُ كتبه على ظهره، وأُوتي قوةً عجيبةً في المشي، كان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخاً. وكان له حَظٌّ في كل علم، قال: كنتُ أبيتُ ببغداد في المساجد، وآكُلُ خُبْزَ الدُّخْن. أي الذُّرَة.

ورَحَل إليه العلماءُ من المشرِق والمغرب، وطارَتْ شُهرتُهُ بفضائِلِهِ وعلومِهِ الكثيرة في الآفاق.

فسارَ مَسِيرَ الشمسِ في كلِّ موطنٍ ... وهَبَّ هُبُوبَ الرِّيح في الشَّرْقِ والغَرْبِ

ورَحَل إليه رجلٌ من أقصى المغرب، ومدَحَه بقصيدةٍ هي من غُرَرِ القصائد، وذَكَر أحواله في سَفْرَتِهِ إليه، وما أصابه من التعب والمشاقِّ، وأنه سار على قَدَميْه في رحلته إليه مُدَّة حَوْلٍ!

سعى إليك على قُربٍ ومِنْ بُعُدٍ ... من كان ذا رغبةٍ في العلم والسَّنَدِ
حتى أناخ بمَغْنَاكَ الكريمِ وقد ... كَلَّتْ ركائبُهُ في الغَيْطِ والسَّنَدِ

لذاك أثْرَى وما أوعَتْ أناملُهُ ... لكن وَعَى قَلْبُهُ ما شاءَ من مَدَدِ
وما أناخ بمَغْنَى غيركم أحَدٌ ... إلاَّ ونُودِيَ: ما بالرَّبْعِ من أحَدِ
وقد قصدتُكَ من أقصَى المغارب لا ... أبغي سواك لِوَحْي الواحِدِ الصَّمَد
وما امتَطيتُ سِوَى رِجْلَيَّ راحِلَةً ... وقد غَنِيتُ عن العَيْرَانَة الأُجُدِ
وهذه رحْلَةٌ بِكْرٌ كَشَفتُ لها ... عن سَاقِ ذي عَزَماتٍ غير مُتَّئِدِ
عنايةٌ لم تكن قبلي لذي طلبٍ ... وحُظوةٌ لم تكن في غابر الأبد
هل كان قبلَك حَبْرٌ أمَّهُ رجلٌ ... وسَارَ مُدَّةَ حَوْلٍ سَيْرَ مجتهِدِ
أبا العلاَءِ ـ لَدَيْكَ ـ الكُلُّ إنك في ... أقصَى العراقِ مُقِيمٌ منه في بَلَدِ
وقد فَشَا لك ذِكرٌ في البلادِ كما ... فاحَتْ أزاهِرُ رَوْضٍ للغَمام نَدِي

٩ ـ الحافظ محمد بن طاهر المقدسي: المولود عام ٤٤٨هـ في بيت المقدس، والمتوفى ببغداد عند عودته من الحج سنة ٥٠٧هـ، كان يمشي في ليلة واحدة قريباً من سبعة عشر فرسخاً، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخاً ـ والفرسخ بمشي القدم: نحو ساعة ونصف، وهو حوالي خمسة كيلومترات أو أكثر، بمعنى أن هذا المسافر كان يمشي في اليوم والليلة حوالي مائة كيلومتر ـ، وهو أحد الرحالين في طلب الحديث، وكان قويَّ السير في السفر، كثير الحج والعمرة، رحل إلى أكثر من أربعين مدينة ليسمع الحديث.

قال ابن طاهر: بلتُ الدم في طلب الحديث مرتين: مرة ببغداد ومرة بمكة، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حر الهواجر بهما فيلحقني ذلك، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث إلاَّ مرة، وكنت أحمل كتبي على ظهري إلى أن استوطنت البلاد، وما سألت في حال طلبي أحداً، وكنت

أعيش على ما يأتيني من غير سؤال. ورحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي، الذي أخرجه مسلم في الصحيح (كان من دعاء رسول الله ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك) ذاكرني به بعض المحدثين الرحالة بالليل، فلما أصبحت شددت عليَّ رحلي - أي وضع خُرْجَ كتبه على ظهره - وخرجت إلى أصبهان ولم أحلُل عنه حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو فقرأته عليه، عن أبيه عن أبي بكر القطان عن أبي زرعة ودفع إلي أبوعمرو ثلاثة أرغفة وكُمَّثراتين، وما كان وقع إليَّ تلك الليلة قوتي، ولم يكن لي قوت غيره، ثم لزمته إلى أن حصل ما كنت أريد، ثم خرجت إلىٰ بغداد فلما عُدت إلى أصبهان كان قد توفي رحمه الله تعالى.

وأقمتُ بتنِّيس مدةً على أبي محمد بن الحداد ونظرائه، فضاقَ بي، ولم يَبْقَ معي غيرُ درهم! وكنتُ في ذلك اليوم أحتاجُ إلى خُبزٍ وإلى وَرَقٍ للكتابة، فكنتُ أتردَّدُ إن صرفتُه في الخبز لم يكن لي وَرَقٌ للكتابة! وإن صرفتُه في الورق لم يكن لي خُبز! ومضى على هذا ثلاثةُ أيام ولياليهن لم أطعَمْ فيها!

فلما كان بُكرةُ اليوم الرابع قلتُ في نفسي: لو كان لي وَرَقٌ لم يمكنني أن أكتُبَ فيه شيئاً لما بي من الجوع، فجعلتُ الدرهم في فمي، وخرجتُ لأشتري الخُبزَ، فبلعتُ الدرهم! ووقع عليَّ الضَّحِكُ! فلَقِيَني أبوطاهر بنُ خطاب الصائغ المَوَاقيتي بتنِّيس وأنا أضحَكُ! فقال: ما أضحكك؟ قلت: خَيْر، فألَحَّ عليَّ وأبيتُ أن أخبره، فحلَفَ: لتَصْدُقَني لمَ تضْحَكَ؟ فأخبرتُه، فأخَذَ بيدي وأدخلني منزله، وتكلَّف لي في ذلك اليوم ما

أطْعَمُهُ.

فلما كان وقتُ الظهر خرجتُ أنا وهو إلى الصلاة، فاجتمع به بعضُ وكلاءِ عاملٍ كان بتنِّيس يُعرَف بابن قادُوس، فسألَهُ عني فقال: هو هذا، فقال: إن صاحبي ـ أي أمير تنِّيس ـ أمَرني أن أُوصِلَ إليه كل يَوْمٍ عَشْرَةَ دراهمِ قيمتُها رُبعُ دينار، وسهَوْتُ عنه، فأخَذَ أبوطاهر منه ثلاثمائةِ درهم وجاءني، وقال: قد سَهَّلَ الله رزْقاً لم يكن في الحساب، وأخبرني بالقصة، فقلتُ: يكونُ عندك ونكونُ على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقتِ خروجي، فإنني وحدي، وليس لي من يقومُ بأمري ففَعَل، وكان بعدَ ذلك يصلني ذلك القَدْرُ إلى أن خرجتُ إلى الشام. انتهى.

١٠ ـ الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي: ولد بدمشق سنة ٤٩٩هـ وتوفي بها سنة ٥٧١، وهو مؤرخ مدينة دمشق الشام في ثمانين مجلداً سوى سائر كتبه الكثيرة الكبيرة، فقد كان هذا الإمام يحافظ على اللحظات من وقته، فجاد على المكتبة الإسلامية بتآليف، تعجز المجامع العلمية اليوم عن طبعها وقد كتبها وحده، وألَّفها بيده وقلمه، وحرَّرها وحققها، وجمع أصولها، وانتخب منها، ونسَّقها ورتبها، وأخرجها للناس آية باقية ناطقة بأنه كان أعجوبة الأعاجيب، في سعة الحفظ، ووفرة المعرفة ونفاذ الهمة في القدرة على التأليف، وكثرة المصنفات المدهشة وحفظ الوقت وكسبه.

وقد أشار إلى ما لاقاه من الشدائد في سكناه نيسابور ذات الثلوج الكثيرة والبرد الشديد الذي لم يألفه في بلده دمشق فقال متألِّماً متضجراً:

لا قدَّس الله نيسابور من بلد ما فيه من صاحب يُسلي ولا سكن

لولا الجحيم الذي في القلب من حُرَقٍ
لفرقة الأهل والأحباب والوطَن
لَمِتُّ من شدة البرد الذي ظهرت آثار شدته في ظاهر البدن
يا قوم دوموا على عهد الهوى وثِقُوا أني على العهد لم أغدُر ولم أخنِ

وذكر ماكان له من أسفار متواصلة ورحلات في الأرض متباعدة فقال:

وأنا الذي سافرت في طلب الهدىٰ سَفَرينِ بين فدافدٍ وتنائفِ
وأنا الذي طوّفت غير مدينة من أصبهان إلى حدود الطائفِ
الشرق قد عاينت أكثر مُدْنِه بعد العراق وشامنا المتعارفِ
وجمعت في الأسفار كل نفيسة ولقيت كل مخالف ومؤالف
وسمعت سنة أحمدٍ من بعدما أنفقت فيها تالدي مع طارفي

قال المؤرخ القاضي ابنُ خَلِّكان في «وفيات الأعيان» في ترجمته: «كان محدِّث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غَلَبَ عليه الحديثُ فاشتهر به، وبالغَ في طلبه إلى أن جمَعَ منه ما لم يتفق لغيره، ورَحَلَ وطوَّف وجابَ البلاد، ولقي المشايخ، وكان رفيق الحافظِ أبي سَعْد عبدالكريم السمعاني في الرِّحلة - وقد بلغ تعداد شيوخ السَّمعاني الذين لقيهم في دار الإسلام سبعةَ آلاف شيخ كما تقدَّم -.

وكان حافظاً ديِّناً، جمعَ المتون والأسانيد، سمع ببغداد، ثم رجع إلى دمشق ثم رحل إلى خراسان، ودخل نيسابور وهراة وأصبهان والجبال، وصنَّف التصانيف المفيدة، وخرَّج التخاريج، وكان حسنَ الكلام على الأحاديث، محظوظاً في الجمع والتأليف، صنَّف «التاريخ لدمشق» في ثمانين مجلداً، أتى فيه بالعجائب، وهو على نسَق «تاريخ بغداد» للخطيب

البغدادي، من حيث شَرْطُه فيمن ذكرهم فيه، ولكنه أضعافُهُ حجماً واتساعاً وشُمولاً، وإفاداتٍ متنوعة.

قال ولَدُه المحدِّث بهاء الدين القاسم: كان أبي رحمه الله مواظباً على الجماعة والتلاوة، يختُمُ كلَّ جمعة، ويختُمُ في رمضان كلَّ يوم، ويعتكفُ في المنارة الشرقية ـ من جامع دمشق ـ وكان كثير النوافل والأذكار، وكان يحاسب نفسَه على لحظةٍ تذهب! لم يشتغل منذ أربعين سنة ـ أي منذ أذنَ له شيوخِهُ بالرواية والتحديث ـ، إلاَّ بالجمع والتسميع حتى في نُزْهَتِهِ وخلواتِهِ.

ثم قال أبوالمواهب: وأنا أقول: لم أرَ مثله، ولا من اجتمع فيه مااجتمع فيه، من لزوم طريقةٍ واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلاَّ من عُذر، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدمِ التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناءِ الدُّور، قد أسقَطَ ذلك عن نفسه، وأعرَض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عُرِضَتْ عليه، وأخَذَ نَفْسَهُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم». انتهى.

يلومُ على أن رُحْتُ في العلم راغباً ... أُجَمِّعُ من عِنْدِ الرواةِ فنونَهُ
وأملك أبكار الكلام وعُونَهُ ... وأحفظُ مما أستفيد عيونَهُ
فيا لائمي دعْني أغالي بقيمتي ... فقيمة كلِّ الناس ما يحسنونَهُ

١١ـ الأديب الرحالة:

وقبل أن نطوي هذه الصفحات الناصعة، واللمحات المشرقة من أخبار أولئك العظماء النبلاء نعطر الأسماع ونطرب القلوب بترجمة أحدهم

وذكر قصيدته الرائعة التي طبَّقت بشهرتها الآفاق، لما تحمله من معانٍ سامية، وأخلاق رائدة. العالم هو العلامة القاضي أبوالحسن عليُّ بنُ عبدالعزيز الجُرْجاني، الفقيه الشافعي الأديب الشاعر المُحْسِن، قاضي قُضَاة الرَّي، المولود في حدود سنة ٣٢٥هـ، والمتوفى بالرَّيّ سنة ٣٩٢ رحمه الله تعالى، صاحبُ كتاب «الوَسَاطة بين المتنبي وخصومه»، قال فيه الثعالبي وهو يَصِفُ كثرةَ تَطوافِهِ وتَقَلُّبه في البلدان لتحصيل العلم:

«وكان في صِبَاه الخَضِرَ في قَطْعِ الأرضِ وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً، وفي الكمال عالماً، فهو حَسَنَةُ جُرْجَان، وفَرْدُ الزمان، ونادرةُ الفلك، وإنسانُ حَدَقَةِ العلم، ودُرَّةُ تاجِ الأدب، وفارسُ عَسْكَرِ الشِّعْر، يَجْمَعُ خَطَّ ابن مُقلة، إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري، وينظمُ عِقدَ الإتقان والإحسان في كل ما يتعاطاه».

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنما ... رأوْا رجلاً عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أحجَمَا
أَرى النّاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ... ومن أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكرِما
ولم أَقضِ حَقَّ العلم إن كنتُ كلَّما ... بدا مَطْمَعٌ صَيَّرتُه ليَ سُلَّما
ومازِلتُ مُنحازاً بعِرْضيَ جانباً ... عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانةَ مَغْنَمَا
إذا قيل: هذا مَنْهَلٌ قلتُ: قد أَرَى ... ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنزِّهُهَا عن بعضِ ما لا يَشِينُها ... مَخافَةَ أقوالِ العِدَا: فيمَ أو لِمَا؟
فأُصْبحُ عن عَيْبِ اللئيم مُسلَّماً ... وقد رُحْتُ في نفسِ الكريم مُعَظَّما
وإني إذا ما فاتَني الأمرُ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ كَفِّيْ إثْرَهُ مُتَنَدِّما
ولكنه إن جاء عَفْواً قَبِلْتُه ... وإن مالَ لم أُتبِعْهُ: هَلاَّ ولَيْتَمَا

وأَقبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ ... إذا لم أَنَلْها وافِرَ العِرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابِساً ... وأنْ أَتلَقَّى بالمديحِ مُذَمَّماً
وكم طالبٍ رِفْدي بنُعْمَاهُ لم يَصل ... إليه وإن كان الرئيسَ المُعَظَّما
وكم نعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً ... وكم مَغْنمٍ يَعتدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما
ولم أَبتذِل في خِدمة العلمِ مُهْجَتي ... لأخْدُمَ من لاقَيْتُ لكِنْ لأُخْدَما
أَأَشْقَى به غَرْساً وأَجنِيهِ ذِلَّةً ... إذاً فاتِّباعُ الجهلِ قد كان أحْزَما
وإني لَرَاضٍ عن فَتىً مُتَعَفِّفٍ ... يَرُوحُ ويَغْدُو ليس يَملِكُ دِرْهَما
يَبِيتُ يُراعِي النجمَ من سُوءِ حالِهِ ... ويُصبحُ طَلْقاً ضاحِكاً مُتَبَسِّمَا
ولا يَسألُ المُثْرِين ما بأكُفِّهِمْ ... ولو مات جُوْعاً عِفَّةً وتكرُّمَا
فإن قلتَ: زَنْدُ العلمِ كابٍ، فإنما ... كَبَا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانَهُمْ ... ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعَظَّما
ولكنْ أهانوهُ فهانُوا ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتى تَجَهَّما!
وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يَستفِزُّني ... ولا كلُّ من لاقَيْتُ أَرضَاهُ مُنْعِما
ولكن إذا ما اضطَّرني الضُّرُّ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ فِكري مُنْجِداً ثم مُتْهِما
إلى أن أَرَى ما لا أَغَصُّ بذكرِهِ ... إذا قلتُ: قد أَسدَى إليَّ وأَنعَمَا

وبعد أخي المسافر فأمثال هؤلاء كثير وكثير، ومن كان على منوالهم عدد غير قليل ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

للمزيد راجع الكتاب القيم/ صفحات من صبر العلماء/ عبدالفتاح أبوغدة